حديث المرآة

عبد الغني العمري

مُقَدِّمَة

إن البحث عن الحقيقة قد شغل عقولا كثيرة منذ وُجدت البشرية. بل ما بحث باحث إلا عنها، سواء عرف ذلك أم لم يعرف.

وقد اشتهر الفلاسفة ـ من بين الباحثين ـ بالبحث الفكري؛ فظن الناس أنهم وحدهم من يمم شطرها وخطب ودها، رغم أن مقولاتهم ظلت غير مقنعة على التمام. بل إن ما أُنتج من فلسفات على مدى عصور، لم يزد العقل البشري إلا حيرة، واستشعارا بأن الحقيقة أعز من أن ينالها مخلوق.

وقد أعلن كثير من الباحثين عن الحقيقة ـ في نهاية بداية بحثهم ـ عن يأسهم من بلوغ مرادهم. واكتفوا بأن يعودوا إلى العيش على النمط الذي أسسه العامة من الناس، لعلهم يظفرون براحة البال التي تبدو عليهم.

وعلى عكس أهل الفكر والنظر، فقد سلك الفنانون دروبا لا تخضع لمنطق ولا فكر؛ بل تُتلمّس بما أوتي كل فنان من صفاء في الإدراك وقوة في الاستشعار. فأخذوا يحومون حولها، وما استطاعوا أن يلجوا لها حمى.

فظن الظانّون أن الحقيقة لا يمكن أن تدرك، وأن أقصى ما يمكن أن يناله الطالب منها، هو الاقتراب الذي يجعله على علم إجمالي بها متفاوت.

أما الدين، فإن أكثر ما ظفر به أهله، إيمان بها متعدد الوجوه بحسب كل دين. ظن معه من لا علم له، أن الأمر فيه، مثلما هو مع الفكر: نسبي (جزئي)، ويخضع للعوامل الشخصية والمؤثرات الاجتماعية...

ونحن، قد من الله علينا بسلوك طريق البحث عن الحقيقة، منذ أن بلغنا سن التمييز. وذقنا من كل درب ما كُتب لنا. وعلمنا شروط البحث ونتائجه؛ وعلمنا العوائق والمتغيرات الفردية والجماعية. فأردنا أن نقدم خلاصة ما يتعلق بهذا الخطب، في قالب حواري، يسهُل على القارئ معه الظفر برؤية شمولية. يحدد منها موقعه إن كان من

أهل هذا الأمر، أو ـ على الأقل ـ يتبيّن بعض ملامح الموضوع، تبيّنا يمكّنه من تصنيفه ضمن باقي المجالات.

وقد قسمنا الكتاب إلى ثلاثة فصول:

ـ الأول: وهو حوار بين الكاتب والمرآة الزجاجية، تطلعه فيه على أسرارها المودعة فيها.

ـ الثاني: وهو حوار بين الكاتب والمرآة الآدمية، تبين له فيه التفاصيل المتعلقة بالتعرّف.

ـ الثالث: وهو "مونولوج" على لسان الكاتب، عندما أصبح مرآة تنطبع فيها حقائق الوجود.

راعينا في ذلك مراحل الطريق، وخصوصية كل مرحلة. ونزعم أننا قد سلكنا في هذا "الطرح" سبيلا يعرض المعاني الروحية في قالب لا يتصادم مع الفكر ومنطقه.

نريد بذلك أن نسهل على أهل الطريقين الأخذ عنا. ونعني بالطريقين: طريق الفلسفة وطريق التصوف. لذلك فإن ما نعرض له من معاني، هو في الحقيقة من "ما بعد الفلسفة".

استحداث اصطلاح "ما بعد الفلسفة" ليس ترفا، ولا تنطعا؛ وإنما هو ضرورة لتجاوز القصور الذي طبع مختلف الفلسفات، والذي جعلها غير مفضية إلى معرفة يقينية.

ولعلنا بهذا نفتح أفقا جديدا أمام البشرية في مجال البحث عن الحقيقة. جديدا، من حيث المدخل فحسب، وإلا فالطريق معالمها مؤسسة من قبل أن تعرفنا الدنيا ونوجد فيها.

واللهَ نسأل، أن نُوَفّق للصواب في القول والعمل. وهو المستعان سبحانه.

الفصل الأول
المرآة الزجاجية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه.

تقول لك المرآة وقد وقفت قبالتها:

ــ في وقفتك بين يدي، اعتراف منك بأمرين: أولهما، أنك لا تعرف نفسك؛ وثانيهما أنك فقير إلي في معرفتك نفسك. فانظر ما أحقرك!

من أنا ؟

سؤال يتهرب منه جل الناس بعد أن يكتسبوا مهارة التهرب بفعل التربية والتقليد. يختبئون خلف مقولات متوارثة، مفادها أن من الأسئلة ما لا جواب له.

هل أنت متأكد؟

هل جبت جميع بلدان الأجوبة ولم تعثر على الجواب؟

إن أقررت أمامي بجهلك، وتبرأت من أسباب تبلدك، وامتطيت جواد عزمك متسلحا بسيف توكلك، بدأت معك المسير نحو بدايتك لا نحو نهايتك.

أنت تقول: وكيف لي أن أثق بكلام مرآة، خصوصا وأنه يخالف أقوال النخبة من بني الإنسان؟

ــ كيف تقولين على لساني ما لم أقل؟ أم أن الاستبداد بلغ بك حتى مصادرة حقي في التعبير عن نفسي؟

ــ لو عرفتني، ما حاولت خداعي بمثل مقولتك! فأنا لا أحتاج منك التعبير عما في نفسك حتى أعلمها، لأن كل ما فيها منطبع في، وإلا لما كنت مرآة.

ــ مهلك! فالمرآة تعكس الصور المحسوسة؛ فأنى لها بما في النفوس؟

ــ أنت لا تعلم أن ما في نفسك صورة من الصور. أما اغترارك بمحسوسك، فهو من أثر وهمك الذي رتب لك الأمور على ما تظن أنه الحق. فلا تحجب بحسك عن معناك.

ــ الصور التي تظهر فيكِ لا حقيقة لها، أما المحسوسات التي تسمينها أنت صورا فهي حقيقية.

ــ وما أدراك! لعلك لا تعلم أن مظهر المرآة مع مظاهر الصور، كلها تختلف بحسب الحضرة (العالم) المقصودة. هذا مع العلم أن حقيقة المرآة وحقيقة الصور واحدة. بمعنى أن ما تراه أنت محسوسا وتعتد به، إنما هو صورة ظهرت في حضرة الحس. والمعاني التي تجهلها، هي صور ظهرت في حضرة المعنى. فلا فرق إلا من حيث اعتبار الحضرة، ليس غير.

ــ إن كان الأمر كذلك، فعلى الصور المحسوسة أن تكون ظاهرة في مرآة محسوسة، ونحن لا نرى مرآة كما تزعمين؟

ــ ذلك لعمى عين بصيرتك التي هي عينك في حضرة المعنى. أما المرآة التي تسأل عنها فهي الهباء، أو ما اصطلح عليه الفلاسفة الأقدمون بالهيولى. والحقيقة الجامعة له مع ما تعرفه أنت بالمرآة في العرف، هو قابلية إظهار الصور. فعلى هذا، فكل ما تجرد عن الصورة في ذاته وكان قابلا لأن تظهر فيه، فهو مرآة في كل حضرة بحسبها، وفي كل مقام بحسبه.

۞۞۞

ــ انظر الآن إليّ! ماذا ترى؟

ــ أرى نفسي.

ــ هل تشك في أنك ترى نفسك؟

ــ لا.

ــ فهل فيّ شيء زائد علي؟

ــ لا.

ــ فما الذي تسميه نفسك فيّ؟

ــ صورتي.

ــ وصورتك ليست غيري.

ــ إلامَ ترمين؟

ــ أريد أن أحيلك إلى نفسك وعالمك. تظن أنك تعلم نفسك وتعلم ما يحيط بك. ولو أخبرك شخص بغير ما تعتقد، لاتهمته في عقله.

ــ تريدين أن تخلصي إلى أن نفسي وما يحيط بي صورة تُشهد ولا وجود لها يُطلب؟

ــ إن ما تجده من ذوقك لوجودك، ويقينك بأنه ليس شيء سواك، يتوقف على الحضرة التي أنت فيها.
فمثلا عند رؤيتك نفسك في عالم الرؤيا والمنام، أنت لا تشك في أنك رأيت نفسك، لكن أهو نفس ما تعتبره نفسك عند اليقظة؟
ــ هذا يقتضي أن يكون لي عدة وجودات، هي كلها أنا.
ــ لو قلت لك أنا هذا، لاتهمتني! ومع ذلك أقول: وجودك واحد، وإلا لم تكن أنت أنت؛ ولكن صورك متعددة بحسب الحضرات كما تقدم.
ــ ماذا تقصدين؟
ــ أريد أن أقول إنك لا تعلم نفسك حقيقة حتى تميز بين صورك (شهوداتك).
ــ أنت تريدين أن تزجي بي في متاهات ما أكثر ما تاه فيها كثيرون. فإما أن يكون المرء فيلسوفا، يخرج بتفسير يقنعه، أو أن يختل عقله ويذهب في الذاهبين.
ــ لا أعجب من تهربك، لأنك تخاف من أن تفقد الـ"مَعْلَمَ " الذي تستند إليه في وجودك، وهذا خوف طبيعي. لكنك إن توفر لديك الاستعداد المعرفي (الظمأ إلى الحقيقة) ستتغلب

على خوفك الطبيعي، وتخوض غمار تجربة البحث عن حقيقتك.

تقول المرآة:

ــ أعلم أنك تتبرم كثيرا من قولي لك إنك لا تعلم نفسك، ومن تكراري له. لكن سأقرب لك الأمر:

أترى إلى صورتك فيّ، هل هي تعلم نفسها؟

ــ وكيف لها أن تعلم وهي مجرد صورة؟!

ــ قد سبق وقلنا أنك أنت أيضا مجرد صورة في مرآة أخرى .

ــ ولكني أدرك نفسي، بخلاف الصورة التي فيك.

ــ الآن، هب أن للصورة التي فيّ إدراكا لنفسها في عالمها الذي يظهر معها. هل تراها تعلم نفسها؟

ــ...

ــ لأنها ما لم تعلم حقيقتها مني، ونسبتها إلي، فلن تكون قد عرفت نفسها حقيقة. ولكي تعلم حقيقة نفسها، لا بد لها

من العلم بأنها ليست شيئا آخر غير المرآة من جهة، ومن جهة أخرى هي شيء غيرها ، بما أنها صورة لما يقابلها.

ــ هذا أمر لا تقبله العقول، لأن الأمر على ما قلتِ وجود واحد!

ــ وما زلت عند قولي، لكن لن تدرك ما أقول، حتى تعلم الصورة نفسها من المرآة. وهو أمر ليس بيد الصورة.

۞۞۞

تقول المرآة: أنت تقول:

ــ فكيف أحصّل العلم بنفسي؟

ــ أولا، بما أن الأمر ليس إلى الصورة، فاعلم أن كل محاولة من قبلها هي آئلة إلى الفشل. لذلك تجد المفكرين والفلاسفة، مهما بالغوا في التفسير والتنظير، فإنهم لن يزدادوا بأنفسهم إلا جهلا، وعن حقيقتهم إلا بعدا. أما فكيف يحصل هذا العلم الشريف، فاعلم أن ذلك لا يكون إلا بإذن من الله. فإن حصل الإذن، فإنه سيحصل لك الفتح في المرآة التي هي أقرب إليك.

ــ كيف يحصل هذا الفتح في هذه المرآة؟
ــ أنا لا أعني المرآة الزجاجية هنا، لأنها ليست إلا صورة لحقيقة المرآة المناسبة لك.
ــ وما هي المرآة المناسبة لي؟
ــ هي المرآة الآدمية.
ــ وهل من المرائي ما هو آدمي؟
ــ اعلم أن لكل عالم مرآة. فكما أن للأجسام مرآة، فللقلوب مرآة، وللأرواح مرآة. وبما أنك آدمي فإن المرآة الزجاجية لا تريك من نفسك إلا صورتك الظاهرة، وتبقى صورتك المعنوية القلبية غائبة عنك حتى تقابل مرآة آدمية. وهذه المرآة الآدمية، هي شخص مثلك في الظاهر، لكنه من حيث الباطن قد تجرد عن جميع الصفات المقيِّدة، وصار جوهرا ساذجا يعكس صور بواطن كل من يقابله.
ــ كيف تقولين هذا الآن، وقد سبق أن ذكرت أنك تعلمين ما في نفسي؟!
ــ ما قلته لك سابقا، هو من علمي الإجمالي بك. وذلك أن المرايا مشتركة الحقيقة، وقولي كان من هناك. أما الآن فأنا أتكلم عن تفصيلك. ففرق بين الأمرين.

ـــ فكيف أعثر على مثل هذا الشخص وأميزه؟

ـــ اعلم أن هذا الأمر ليس في مقدورك البتة. ولكن إذا شاء الله، دلك عليه.

ـــ فكيف يدلني الله عليه؟

ـــ يدلك عليه بسبب عادي، كأن تسمع به من الناس فتتصل به، فيحصل المراد؛ أو بأن يسلط عليك ظمأ يضطرك إلى صدق اللجوء إليه، فيستجيب لك بإطلاعك على خصوصية عبد من عباده؛ أو بأن يعتني بك عناية خاصة يسوق بها إليك من يأخذ بيدك.

۞۞۞

أنت تقول:

ـــ وهل بمجرد مقابلة هذه المرآة الآدمية أعلم نفسي؟

ـــ نعم، إذا علمت معنى المقابلة وحصلت لك هذه المقابلة. أما إذا لم تتم لك المقابلة، فإنك ستشهد نفسك دون أن تعرفها. بمعنى أنك إذا التقيت عبدا ربانيا، فإنك قد تراه فاسقا مثلا، وأنت ما رأيت إلا صورتك فيه ولكن لن تعلم ذلك. فتبقى محجوبا عن نفسك.

ــ إذن فالأمر سيان.

ــ لا، لأنه إن أُذن لك في الترقي الذي هو تحقيق المقابلة المذكورة آنفا، فإنك ستخضع لذلك الشخص الرباني وتنقاد له، فيبدأ بتكميل استعدادك. وعلامة الإذن لك، هي أن تشهد فيه الكمال إيمانا بعد أن لم تشهده عيانا. كل هذا وأنت كالأعجمي لا تدري ما يحدث لك.

الآن قد دللتك على بدايتك كما وعدتك، وأديت إليك الأمانة المودعة لك عندي، ولن أتمكن من مجاوزة مقامي. فإن شئت التقدم بعدُ، فافعل ذلك وحدك على ما نبهتك، وإلا فاعلم أنك لست من أهل هذا الشأن، فامض عني.

ــ إن أذنتِ لي، فأتمي علي فضلك ومنتك، واذكري لي بعض ما يؤنسني فيما أنا مقبل عليه من أمري، فإني أخشى أن أستوحش فأحجم؛ وأنا قد علمت صدق نصحك وبذل ما في وسعك.

۞۞۞

أقول لك:

ــ أول ما يبدأ العبدَ من أحوال الطريق: الانتباه.

هذا الانتباه أو اليقظة، علامة لعناية الله بهذا العبد. فيجد نفسه غير مكتف بما هو شائع بين الناس، ويجد ظمأً من نفسه شديدا إلى معرفة الحق. قد لا يكون الحق عنده في البداية اسما من أسماء الله، ولكنه سيتبين ذلك فيما بعد.

ومِن صدق هذا الانتباه يجد نفورا من الدنيا، قد يرشح على ظاهره حتى لا يرتاح إلا مع اعتزال الناس، لما يصيبه من مشقة موافقتهم في أمور العادة التي هم متلبسون بها.

هذا الانتباه في الحقيقة من مقدمات الفتح، إن وفق المرء إلى العمل بمقتضاه ورعايته بالتزام الآداب الشرعية.

كما أن حال الانتباه قد يطول، حتى يجد المرء نفسه في حيرة متنامية قد تصل إلى حد تعريض حياته البيولوجية للخطر، كما حدث مع الإمام أبي حامد الغزالي رضي الله عنه؛ أو قد يتدارك الله عبده برحمته على عجل، فييسر له سبيل لقاء المرشد بسبب جلي أو بغيره. وهذا هو الشائع.

أما بعض العباد الآخرين فقد يفجأهم الفتح ابتداء، عناية من الله، فيندرج نور انتباههم في نور فتحهم، فتكون

بدايتهم عين نهايتهم؛ كما حدث مع الشيخ الأكبر محيي الدين رضي الله عنه.
والله يفعل ما يشاء.

وفي الحقيقة فالأمر عائد إلى ترتيب التربية مع الفتح. فمن أهل الله من تقدمت تربيتهم وتأديبهم على فتحهم. وكما قلت هذا هو الشائع. ومنهم من وقع له العكس كما بينت. هذا لأنه لا بد منهما معا حتى يكمل للعبد التخصيص ويتخلص من التدنيس.
فانظر هل أنت من أحد هذه الأصناف؟ فإن لم تكن فلست معنيا بهذا الخطاب الخاص، ولا مرشحا للدخول في دائرة الاختصاص.

۞۞۞

ــ مهلا أيتها المرآة، هل الحيرة التي ذكرتها هي نفسها الشك؟ أسأل، لأن كثيرا من الدارسين يقارنون بين الغزالي وديكارت.

ــ اعلم أن الحيرة غير الشك. والحيرة أيضا لا بد فيها من تمييز بين حيرة المقبل على الطريق، وتلك التي تكون للواصلين: فالأولى حيرة سببها الجهل، والثانية حيرة يعطيها العلم.

أما الفرق بين الشك والحيرة التي للمبتدئين، فاعلم أن الشك أصله ظلمة الكفر المكتنفة لقلب الكافر من كل جوانبه. وهذا حال ديكارت وأمثاله من المتفلسفين؛ أما حيرة المبتدئ فهي قرينة إيمانه، لكن مع تطلع واستشراف إلى الكشف والعيان، يعطيهما استعداد هذا المبتدئ. كل هذا وهو لا يعلم ما يعتمل في نفسه. وهذه هي حال الغزالي عندما لم يكتف بما حصّل من علوم العقل والنقل. وحيرته رضي الله عنه أو ما يسمونه "أزمته الروحية" دليل على نفاسة جوهره، الذي ظهر للعموم عند تحققه ووصوله.

أما الدارسون الذين يخلطون بين الغزالي وديكارت، فهم غير مؤهلين للخوض في مثل هذه الأمور لعدم تمييزهم للحقائق. وفكرهم الذي يركبونه في هذا المجال يقصر عن الوصول بهم إلى العلم الصحيح. ولا يغرنك اعتماد الجامعات لمثل تلك المناهج فيما يسمونه بالدراسات الأكاديمية؛ لأن

الظن لا يغني عن الحق وإن أجمع على صحته الثقلان. فإياك واختلاط الحقائق عليك حتى لا تعود تبصر شيئا. والله يهديك.

ــ فكيف أعلم أن من أظنه مرآتي هو مرآة حقا؟

ــ اعلم أن الشيخ الرباني (المرآة) هو حقيقة المريد. فإذا التقى المريد بحقيقته، لا بد له أن يميز ذلك. وهذا الأمر هو المشار إليه في القرآن بحياة الحوت. وبسط ذلك هو أن المريد قبل لقاء شيخه يكون قلبه في حال لا حياة، بحيث لا يعلم من قلبه إلا الاسم. ولا يظن أن هناك ما يُرام فوق حاله. وهذا الأمر لا يعلمه إلا من ذاق حياة القلب بعد ذلك. فإذا التقى بالشيخ، فإنه يخرجه من تلك الغفلة المطبقة إلى حال الشعور. وأول ما يشعر به حياة قلبه. فيجد لذلك أعراضا معنوية قد تخرج إلى الحس. يستغربها في البداية لأنها خلاف المعتاد عنده وعند أمثاله من الناس. فمن وجد تلك الأعراض، أعراض الحياة، فليعلم أن حوته قد حيِي وأن علامة بلوغه حمى حقيقته قد تحققت. فما عليه بعد ذلك إلا أن يلزم هذا الشيخ لزوم الغريق لمنقذه. وعليه أن يجمع عليه همه، بحيث ينسى من سواه وإن كان في الظاهر

أشهر منه وأوجه. وعليه أن يأتمر بأمره من غير ما توان أو تردد. والموفَّق من وفقه الله.

ــ إذا أنا لقيت هذا الشخص الرباني، وعرفت من قرينةٍ ما أنه عين ماء حياتي، ولازمته على ما ذكرت، فماذا أستفيد معه؟

ــ يا أيها الإنسان، إذا توفر لك كل ما ذكرت، فالسؤال عن الاستفادة من قلة التصديق.

ــ كيف ذلك، وأنا إنما أسأل من شدة شوقي إلى الوصول؟

ــ اعلم أن من كان صادقا في طلبه، فإن علامة صدقه إذا لقي شيخه، أن ينسى فيه كل حظوظه الدنيوية والأخروية. هذا ما يمكن أن نسميه "جمع البداية ". وقد قيل: من أشرقت بدايته أشرقت نهايته. أو لنقل من أحكم بدايته كملت نهايته. وعلى هذا، فالجمع المطلوب عند النهاية، يدل عليه جمع البداية الذي هو جمع الهم على الشيخ.

ــ ألا أخاف أن يكون هذا مدخلا من مداخل الشرك؟

ــ أيها الإنسان، لا يخاف الوقوع في الشرك إلا من تحقق له التوحيد؛ لأن المرء لا يخاف الخروج إلى الظلمة إلا إن كان في النور؛ ويفترض في المبتدئ أنه مازال لم يتحقق له

الإخلاص ولا الخلوص. فخوفه من الشرك في هذا المقام من تلبيس إبليس أو من حديث النفس.

هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإن الشيخ الرباني لا يتمكن من الدلالة على غير الله وراثة نبوية، وإلا لانتفت عنه صفة الربانية. أعني أن الرباني لا خوف منه على النفس بتاتا إنما الخوف ممن يدعي الربانية فيعتقده الناس فيهلكهم، لأنه سيدلهم حتما على السِّوى وإن لم ينطق في الظاهر إلا بالوحي. وهذا أمر يجهله الناس، لذلك يقعون في حبال أصحاب البواطن الخربة، المتسترة خلف الألسن المداهنة. وإنما وقع الناس في ذلك لأنهم ما رجعوا في طلب الشيخ إلى ربهم، وإنما اكتفوا بظنهم وحكم نفوسهم الميالة إلى من يزكيها. وكل هذا من قلة الصدق.

ومع ذلك، سأذكر لك ما يمكن أن تستفيده من شيخك إن كان ربانيا. وسأجمل الكلام لأن التفصيل فيه لا يمكن. ستستفيد منه معرفة بنفسك ومعرفة بربك. فالمعرفتان متلازمتان، غير أن الأولى تنازلية تسير في اتجاه الفناء، والثانية تصاعدية مآلها البقاء. وهذه المعرفة ليست تلقينية كما يظن من لا علم له، بل هي ذوقية، يسير بك الشيخ

فيها عبر مراحل السلوك بحسب استعدادك. فإذا كنت في مرحلة من المراحل وتمكنت فيها ، أعطتك هذه المرحلة معرفة بنفسك ومعرفة بربك، تتزود بها إلى المرحلة التي تليها. وهكذا إلى أن تبلغ النهاية. هذا إن لم تكن ممن ينقطع في إحدى المراحل التي دونها. فما أكثر المنقطعين في الطريق إلى الله.

وعلى الله قصد السبيل.

ــ إذا كنتُ مع الشيخ، فهل من علامات أعلم بها أنني أتقدم في رحلتي؟

ــ هذه الرحلة هي ما يسمى السلوك. وليس كل من عاشر شيخا كان سالكا، لأن للسلوك شروطا، وهو يقتضي استعدادا خاصا.

وعلامات السلوك ببساطة كما هو الشأن بالنسبة إلى السلوك الحسي (الرحلة الحسية) هي تغير الظرف الذي هو محل لك. ففي السفر الحسي، يعلم المرء أنه يسير عندما

يرى المكان الذي هو ظرف له يتغير، فمرة يكون في مرتفع، وأخرى في منخفض، وثالثة في مكان مخضر، ورابعة في مكان قاحل، وهكذا...

وبما أن السلوك الذي نتحدث عنه هنا معنوي، فإن ما يتغير عند السالك هي المكانة (المقام) وليس المكان. وبتغير المكانة التي تؤثر على باطن السالك، يجد نفسه تارة في خوف، وأخرى في رجاء، وثالثة في طمأنينة ورابعة في حيرة. ومرة يأنس بالأشياء وأخرى يفر منها ...إلى غير ذلك مما لا يمكن أن يحصى.

ــ كل ما ذكرِته، هو مما ينتاب الشخص العادي في عيشه اليومي، فكيف يكون هذا من علامات السلوك؟

ــ إن ما يعيشه الشخص العادي، هو ومضات دالة على مقامات السلوك؛ أما ما يعيشه السالك فهو انصباغ لباطنه بالكلية بالمقام الذي يكون فيه. وقد يطول ذلك من حيث الزمان كما قد يقصر، لكن في كل الأحوال هو لا يطاق بالنسبة إلى الشخص العادي. فلو فرضنا أن حالا من أحوال أهل الطريق صب على باطن شخص عادي، فاعلم أنه قد

يموت من شدة الثقل الذي يجده منه. لهذا كان لزاما أن يكون السالك على استعداد خاص.

وكما أن المسافر السفر الحسي يستفيد علما في كل مرحلة هو قاطعها، فكذلك السالك يستفيد علما خاصا من كل مقام هو نازل فيه. هذا ما يسمى علم المقام. وعلوم المقامات تندرج كلها فيما يسمى علم السلوك أو فقه الطريق، وهو غير العلم بالله كما قد يُظن.

في مراحل السلوك، يتعلم السالك علم معاملة الله عن غيب.

ولولا الشوق الذي يكون حادي النفوس في هذه الرحلة لما أطاقت نفس الاستمرار فيها.

والله الموفق.

۞۞۞

ــ هذا الكلام مخيف، فكيف تخاطبينني به وتنتظرين مني أن أقبل على هذا الأمر؟!

ــ أولا، أنا أخاطب الرجال بهذا الخطاب، ولا أخاطب كل الناس. ومن يرد معالي الأمور لا بد له أن يستعد لها ولا يباليَ بما يلاقيه في طريقه من صعاب.

وثانيا، يكون الأمر مخيفا لو كان حقيقيا، وهو إنما يقع في الوهم. ولولا الوهم لما احتاج المرء أن يسلك الطريق.

ــ كيف يكون السلوك في الوهم، والوهم لا يعتد به؟

ــ لما كانت نظرتك إلى الوجود نظرة نفسية وهمية، احتجت إلى أن تخرج من ذلك الوهم حتى ترى الوجود بعين الحق. وإخراجك من الوهم يتطلب التدرج بك فيه حتى تصبح قادرا على قبول الحق. ولو خرجت إلى الحقيقة دفعة واحدة، فإنك لن تطيق ذلك، وسيعود عليك ذلك إما بفقدان عقلك أو بتحلل تركيبك وحصول الموت. وفي جميع الأحوال تكون فائزا، لكن شتان بين من يبقى راسخا وبين من يفقد عقله أو يموت.

هؤلاء الذين يفقدون عقلهم مع الفتح المباغت هم المجاذيب أصحاب الأحوال. فبقاؤهم هنا بقاء أجسام كالدواب، أما عقولهم فقد ذهبت في الله.

وكلامنا نحن، هو في طريق الإسلاك، وهو السير بالمرء بلطف وحسن سياسة، وإكسابه استعدادا يُبقي على ظاهره إذا تحقق. وهذه أكمل طريقة يسار بها إلى الحق، وهي طريقة الأنبياء عليهم السلام.

والحكمة في بقاء الظاهر مع تحقق الباطن، هي إيفاء مراتب الوجود حقها، أما ذهاب العقل فهو أحدية محض، لا ذكر لتفاصيل المراتب فيها. والكمال هو إعطاء كل ذي حق حقه.

ــ لا أكتمك أني لا أدرك كثيرا مما ترمين إليه، ولعل هذا الأمر يختلف عن سواه من الأمور التي يمكن للمرء تصورها قبل الإقدام عليها .

ــ أجل، فما نحن بصدده لا يماثله شيء. لذلك لا يمكن تصوره عند البداية؛ وكل محاولة لذلك لا تزيد المرء إلا بعدا. والمعتَمَد بعد عناية الله هو الشيخ الرباني إذا وثقت فيه وأسلمته قيادك كما سبق أن نبهتك. وإنما كان ذلك على هذه الصورة للعزة التي يتصف بها هذا العلم. بل حتى الشيخ الرباني لا يصل إليه إلا من سبقت له العناية، لأنه هو الآخر

لا يمكن للإنسان أن يحيط بصفاته ولا أن يدرك خصائصه ومميزاته.

ــ إن كان الأمر كذلك فلم نجد بعض الشيوخ لديهم مئات الآلاف من المريدين؟ فالعزة تقتضي أن يكون العدد قليلا.

ــ هذا صحيح!

لكن يجب أن تعلم أن ما كل من يعتقد فيه الناس أهلية التشيخ هو كذلك؛ بسبب أنهم لا يحيطون بعلم مقتضيات المشيخة كما سبق أن ذكرت لك. فإن حدث وكان الشيخ ربانيا محقا، فاعلم أن ما كل من اتصل به هو معه حقيقة، لأن شروط الإرادة قليل من الناس من يأتي بها. فعندئذ قد يكون معه البعض دون البعض الأغلب؛ وإن كانت مخالطة من تلك صفته لا تخلو من خير.

أما الآن، فإن كل كلام هو حشو لا يليق. فامض إلى ما أنت عازم عليه ولا تلتفت وتتردد. والله يمنحك من عنده ما يدلك على ما فيه خيرك. والسلام عليك.

الفصل الثاني
المرآة الآدمية

بعد أن فارقتَ المرآة، واستوعبت كلامها، وأدركت مرامها؛ بحثت بين بني جنسك حتى عثرت على من يمكن أن يكون حقيقتك.

ــ سيدي، كيف أعلم أنك حقيقتي، وأنت كغيرك من الناس من حيث الصورة؟

ــ يا ولدي، الحقيقة لا يمكن أن تراها بعينين، وإنما تراها بالعين الواحدة.

ــ وما هي هذه العين الواحدة؟

ــ هي عين قلبك، واسمها البصيرة. وهي الأخرى يجري عليها ما يجري على البصر. فيمكن أن تكون سليمة، ويمكن أن تمرض، أو أن يصيبها العمى. فمن كانت بصيرته سليمة عرفني؛ ومن كان مريضا، لزم عليه اتباع توجيهي حتى يسترجع إبصاره. أما من كان أعمى البصيرة، فإنه مقطوع عني.

ــ يا سيدي، وكيف أعلم حال بصيرتي؟

ــ لن تبصرنا حتى تتخلص مما يحجب إبصارك، أو يضعفه. أريد أن أقول أن أغلب الناس تحتاج بصائرهم إلى مداواة.

ــ وما الذي يحجب إبصاري، وأنا لا أعلمه؟

ــ كل ما أنت عليه مما أنتجته تربية والديك أو مربيك لديك؛ وما تعارف عليه قومك أو الناس الذين تعيش بينهم.

ــ وكيف أتخلص من كل هذا، وهو على ما يبدو ليس أمرا سهلا؟

ــ أولا يجب أن تكون على الإسلام، دين الحق. فهو المفتاح للطريق إلى الحقيقة؛ ومن عَدِم المفتاح، فلا يطمع بولوج الحمى.

ــ وكيف تخص الإسلام، وقد تكلم المحققون من أمثال الشيخ الأكبر عن معرفة الحق في كل معتقَد؟ أليس هذا اختلافا بين المحققين؟

ــ يا ولدي من لم يُحكم أمره، يوشك أن يزلّ. نحن كان كلامنا في البداية، والكلام الذي أشرت إليه هو من النهاية.

ــ هل يُفهم من هذا، أن المرء في النهاية، لا عليه أن يكون مُسلما؟

ــ قطعا لا! أنت الآن تُعمل فكرك فيما هو فوق طورك، وتخرج بنتائج تخالف الحق. وقد فعل هذا كثير من الناس، ممن يستكبرون أن يتعلّموا على أيدي أهل الحق، فضلوا

وأضلوا، ونسبوا أهل الله من أمثال الشيخ الأكبر إلى الباطل جهلا وظلما.

أولا عليك أن تفهم أن الإسلام وحده هو دين الحق. ومن حيث كونه كذلك، فينبغي أن يكون حائزا على كل ما تتضمنه الأديان الأخرى من حق، وزائدا عنها بما امتاز به عنها. وليس إلا الإطلاق. فكل الأديان عدا الإسلام (المحمدي) مقيدة. ولو لم يكن هو مطلقا، ما كان يمكن أن يكون خاتما للشرائع ولا مهيمنا عليها. لكن الإطلاق العلمي الذي يصل إليه أصحاب النهاية، هو غير ما تفهمه أنت وأمثالك من الإطلاق العقدي أو التعبّدي. فحتى تكون مسلما، لا بد أن تكون على عقيدة أهل الإسلام، وتعبد الله على ما شرعه فيه.

وحتى نقرب لك هذا المعنى، فتصور في ذهنك الإسلام في صورة بحر، تصب فيه عدة أنهُر. فالأنهر هي مختلف العقائد، والبحر هو الإطلاق. هذا من حيث العلم! لكن، من حيث الشريعة، لا بد أن تأتي من نهر الإسلام، الذي هو واحد من تلك الأنهر. والخلط بين المعاني التي دللناك عليها، قد أضر

كثيرا بالناظرين فيها، وصار من أعظم الموانع عن طريق الحق.

وأما أولئك العامة، الذين يتوهمون في أنفسهم أهلية الخوض في مثل هذه المسائل، ويتصدون لأهل الحق بالتكفير والسباب، ظنا منهم أنهم يغارون على الحق؛ فهم دون المرتبة التي تجعلنا نخاطبهم. وإنما نذكر لك أمرهم حتى لا تكون مثلهم، أو تهتم لما يقولون.

ــ إن كان الإسلام هو شرط طلب الحقيقة، فلم لم يصل إليها من المسلمين إلا قلة؟ حتى إن نحن اعتبرنا العدد، فإننا سنحكم بكونه غير موصل إليها، إن لم نقل حاجبا عنها!

ــ صحيح ما تقول. لكن ينبغي عليك أن تميز بين الإسلام الأصلي، وبين الإسلام المذهبي. ونعني بالمذهب هنا المذاهب العقدية. كما عليك أن تضع في اعتبارك أن طلاب

الحقيقة قليلون حتى من بين المسلمين أنفسهم. ونحن نخاطب تلك القلة لا غيرها، فاحفظ هذا!

ــ لا زلت لا أستوعب الفرق بين أناس ينتمون إلى دين واحد. هل يكون ذلك بسبب اختلاف النية، أم بسبب قرب المذهب من الأصل وبعده، أم بشيء آخر؟

ــ إذا كان الدين واحدا، فإن الاختلاف حتما عائد إلى المتدينين. اعلم أن الدين في أصله وضعه الله على مرتبتين: المرتبة الأعلى، لمعرفته؛ والمرتبة الأدنى، لدخول جنته. وقد انقسم أهل الدين بسبب ذلك إلى طائفتين: طائفة لم يروا غير الحق أهلا أن يقصد. وهؤلاء هم من سلكوا طريق التحقق. وطائفة أهمتهم أنفسهم، وعملوا من أجل نجاتها. وهؤلاء هم غالبية المتدينين. وهذه الطائفة الثانية تُنكر على الأولى منطلقها وأقوالها؛ لأنهم لا يتمكنون من إدراك ما هي عليه. فهذا أهم سببٍ للخلاف الذي تجده بين أهل الإسلام.

ــ هذا يعني أن من المسلمين من يحتاجون إلى مداواة، حتى يسيروا في طريقكم!

ــ صحيح، فقد ذكرنا لك أن الإسلام مفتاح. أما تحقيق الإسلام فهو ما نحن بصدده.

ــ فإذا كنت مسلما، فما عليّ بعد؟

ــ عليك أن تقصُر نظر قلبك علينا. وهذا هو نظير مقابلتك للمرآة. فالمرآة لا يمكن أن تشاهد فيها صورتك ما لم تقف قبالتها على النحو الذي يضمن ظهور الصورة فيها كاملة، ومن غير تشويه.

ــ فماذا سأشاهد؟

ــ بما أن مشاهدتك ستكون بعين بصيرتك، فإنك ستشاهد صورتك المعنوية فينا. وستعلم تفاصيلها، من أخلاق وعلوم، كلما ازداد إبصارك قوة.

ولكن في البداية، لا بد من هدم كل ما أنت عليه، حتى يصح البناء على أساس من الحق.

ــ كيف ذلك؟

ــ أنت الآن ترى الوجود بوهمك. ومعاملتك على هذا باطلة، وتنتج لك الظلمة. والظلمة لا إبصار معها.

إن الوهم الذي أنت عليه، تسرب إليك من الناس الذين حولك، منذ صغرك. وازداد تأكّدا مع مرور الزمن. بل إنك أنت نفسك سعيت في ترسيخه. كنت تروم بذلك الوصول إلى اليقين والطمأنينة. ولم تعلم ـ كما لم يعلم غيرك ـ أنك تزيد من سمك الحجاب بينك وبين الحق.

فأنت الآن سجين الدنيا، ولا ترى منها غير المحسوسات، ولا تتبع إلا أغراضك؛ فكأنك في سجنك مقيد بقيود مع ذلك. فكيف تتوهم أنك تستطيع أن تنطلق في الطريق؟!

ــ إن كان الأمر كما تقول يا سيدي، فكيف يمكن الخروج منه؟

ــ لعلك تدرك أن الخروج عما أنت عليه صعب جدا، بسبب اعتيادك وعدم خطور غيره في ذهنك. أنت الآن ملتصق بـ"عالمك"، كالتصاق الجنين برحم أمه. ففصلك عما أنت عليه، يشبه موتك. وآلام الفصل تكاد لا تطاق، حتى تثبت معها على ما تريد منا.

ــ يا سيدي! كأنك تؤيسني منذ الآن! أم أنك تريد أن تُعلمني بعدم أهليتي؟

ــ لا، أنا أخاطبك بالحق من غير أن أزيد أو أنقص. أردت أن أنبهك أن المرء لا يستطيع أن يسلك طريقنا من نفسه. وهو في هذا يشابه كل بني جنسه.

ــ فكيف استطاع أمثالكم أن يسيروا في هذه الطريق، وهم من بني جنسنا؟

ــ يا ولدي ما استطاعوا ذلك بأنفسهم، ولم يكن لهم ذلك أبدا! بل إن الحق هو من فتح لهم إليه بابا، خرجوا به من أسر العادات.

ــ كأني أفهم، أن الانخراط في طلب الحقيقة هو موقوف على من اجتباه الحق من عنده ابتداء، وليس متاحا لكل أحد؟

ــ هذا صحيح. وسبب ذلك عزة الحق. ومعنى العزيز هو من لا يوصل إليه إلا بإذنه.

ــ فلمَ يشعر جل الناس بظمإهم إلى الحقيقة، ولو في مرحلة من مراحل حياتهم، إن كان الأمر مقصورا على النخبة؟

ــ شعورهم ذاك هو من فطرتهم التي خُلقوا عليها. وأغلب الناس بعد مرور الوقت، يسعون إلى طمره تحت ركام المبادئ التي جعلوها لأنفسهم. فهم لا يقوَوْن على الجمع بينه وبين ما وطّنوا أنفسهم عليه. أما الباب الذي ذكرنا أن الحق يفتحه لمن يشاء، فهو كالاستجابة لدعاء الفطرة. بل هو كذلك!

ــ فكيف يعلم المرء أن الباب فُتح له؟

ــ هو لن يعلم ما يحدث معه، لأن مرتبته مرتبة جهل لا علم؛ ولكن سأذكر لك ما سيجده من نفسه عند وقوفه بالباب.

سيجعل الله له سببا من الأسباب في حياته الدنيا، يزعزع له حال الطمأنينة الوهمية التي كان عليها. ويكون هذا بمروره في محنة شديدة، أو مصاب عظيم، يشرف معه على الهلاك المحقق؛ أو يسلط عليه شوقا إلى الحق يقض مضجعه. فإما دفعه بخوف مقلق، أو جذبه بشوق محرق.

وفي الحالتين، سينفصل عما كان عليه، وسيصبح مؤهلا لولوج الباب. نعني باب الدخول، الذي هو البداية.

ــ يا سيدي، لو بسطت الأمر أكثر حتى أفهم بوضوح!
ــ نعم، الإنسان في العادة، يخرج إلى الدنيا، لا يعلم من أمرها شيئا. ومع تلقيه التربية عن والديه أو عن غيرهما، يبدأ في تكوين صورة عنها. تتطور هذه الصورة مع الأيام، وبحسب توجهه فيها. فمثلا المشتغل بالنظر، يختلف عن العامي الذي لا يسأل إلا سد حاجاته البدنية. وعلى ضوء الصورة التي تكونت لديه، يحدد مساره وتوجهه وغاياته. وهنا يقع الاختلاف بين الناس. فمنهم من يستكين، ويتمنى أن لا يحدث له ما ينغص عليه عيشه؛ ومنهم من يجرب السبل حتى يقارن بينها؛ ومنهم من يكتفي بالكفاف؛ ومنهم من يتطلع إلى نيل أعلى المراتب فيعرض نفسه لأخطار المنافسة مع الأقوياء؛ وهكذا..

وإذا أخذنا إنسانا عاديا من زماننا، فستجده مع بداية عمره، يشتغل بالدراسة؛ حتى إذا أنهاها اهتم بالبحث عن عمل يكسب منه رزقه؛ فإذا ظفر به اشتغل بإنشاء أسرة؛ فإذا كان له أبناء اشتغل بتربيتهم ورعايتهم. وهو في أثناء هذا تزداد مطالبه، فيزداد لها طلبا. فعليه مثلا أن يوفر البيت، ثم عليه أن يوفر المركب، فإن استطاع، سعى لنيل بعض أطايب الدنيا الكثيرة. فإن هو سار على هذا المنوال، فلن يشعر إلا والموت يدق بابه. فيخرج من الدنيا كما دخلها، جاهلا رهين أوزاره. أما من شاء الله له أن يتنبه، فإنه يأخذه من مساره العادي، بسبب من الأسباب، حسي أو غيبي. فكأنه يخرج من الطريق الذي يسير فيه الناس، ويقف على الجانب يسائل نفسه عن المبدإ والمعاد. فيجد أن أكثرية الناس سائرون من غير وعي، كما يسير النائم أثناء نومه. فيبدأ بالبحث عما يروي عطشه إلى معرفة الحقيقة. فإن أذن الله له، جمعه على أحد بوّابيه. هذا بسط ما سألت عنه باختصار.

ــ إن ما ذكرت، يشبه ما وقع لكثير من الفلاسفة، فهل هم من أهل الحقيقة أيضا؟

ــ صدقت. الفلاسفة خرجوا من طريق السير العام، وأخذوا يتدبرون أحوالهم وأحوال غيرهم بغية الخروج بطائل. ولكنهم ليسوا من أهل الحقيقة وإن كانوا ممن طلبها.

ــ فلم كان ذلك؟

ــ اعلم أن أمام كل طالب للحقيقة سبيلين لا ثالث لهما. فإما أن يعود قصد التقدم في طريقها إلى نفسه؛ ونعني هنا على الخصوص فكره، بسبب وجوده لقوة الاستنتاج من نفسه، فيتخذها وسيلة في طريقه؛ فهؤلاء هم الفلاسفة. وإما يعلم أنه عاجز عن تحقيق غرضه بقوته، فيستند إلى الحق في طلب الحقيقة؛ فهؤلاء هم أهل الدين. ونعني بالدين هنا الإسلام حصرا، للأسباب التي ذكرناها لك آنفا.

ففريق الفلاسفة طلب الحقيقة بنفسه، وفريق المتدينين، طلبها بالحق. لهذا كانت طريق الفلسفة غير مفضية، وكانت طريق الدين مفضية، إن كان الاستعداد مؤاتيا. ولاحظ أننا نسبنا الطريق إلى الدين، فهي على إطلاقها؛ أما إن اعتبرنا

التدين، فيقع عندئذ التفاوت من درجة الإطلاق الموصلة بإذن الله، إلى درجة الحجاب الذي قد يبلغ الانحجاب بالنفس عن الحق. ومع ذلك، ففرق بين الانحجاب الذي للفلاسفة، وذلك الذي لأدنى المتدينين، بسبب كون المتدين قد حصّل المفتاح دون الفيلسوف.

ولم يفطن الفلاسفة في طريقهم أنهم ما وصلوا إلا إلى ما انطلقوا منه (أي نفوسهم) وإن اختلفت عليهم الصور.

ومن تنبه إلى معيار المنطلق، فإنه سيُجنب كثيرا من التعب في معرفة المآلات التي لمختلف الأمور. فلا تهمل ما نرمي به إليك!

۞۞۞

ــ إذا كان المنطلق الذي تدعون إليه هو الحق كما تقولون، فلم تربطون طالب الحقيقة بكم، وتطالبونه بقصر نظره عليكم. أليس في هذا تناقض؟

ــ يبدو الأمر متناقضا في المرتبة العلمية التي أنت فيها. وقد حكم كثير من الناس في هذا الأمر بما تعطيهم

مرتبتهم، فغلطوا وأخطأوا الطريق. وهذه القاعدة، أيضا عليك أن تضعها نصب عينيك، حتى تأمن غوائل نفسك.

عليك أن تعلم أن المرآة الآدمية لها خصوصية، ومقتضيات. فهل تظن أن كل إنسان يمكن أن يدلك على الحقيقة؟ إن كان الأمر هكذا، فالتناقض عندك، لأنك تجعل المختلفَيْن متماثليْن من غير أن تفصّل. على كل حال، ينبغي عليك أن تصدّق بأن المرآة الآدمية، قد خرجت عن الآدمية العامة، ودخلت في طرف الحق. فهي من كونها حقا، يمكن أن تدلك على الحقيقة، لا من نسبة أخرى. وأنا أعلم أن هذا من أعسر الأمور التي تعرض لك في البداية، لذلك طالبتك بالتصديق ولم أطالبك بالعلم.

ــ اعذرني يا سيدي، ولكن كيف يمكن أن نرى خلقا ونعتقد فيه أننا نرى حقا؟ أفلا يجعل هذا كل الأمور تختلط علينا، ونفقد معه معايير النظر؟

ــ ومن قال لك إننا نسير في طريق النظر. أنا قد أوضحت لك أن طريقنا ليست طريق الفلاسفة. فتذكر!

ثم إن الحق الذي تريد أن تنزهه، فأنت تجهله. كيف تقول إنه كذا وليس كذا. هذا لا يمكن! أما إن كنت تستند

إلى ما اعتدته من مقولات، فقد أخبرناك بضرورة هدم كل ما بنيت سابقا. أم تراك نسيت؟!

ــ يا سيدي، حتى الدين الذي جعلتَه مفتاحا لأهلية طلب الحقيقة، لا يعضد ما تقول؛ أم أن الأمر غير هذا؟

ــ يا ولدي، عليك أن تميز بين دلالتنا إياك على الدين، وبين مختلف المقولات الدينية. فالدين مطلق من حيث الدلالة المعرفية، كما سبق أن أشرنا؛ أما المقولات الدينية، فهي تعكس مراتب أصحابها فيه. وبين الأمرين بَون شاسع!

ــ كأنك تريد أن تقول لي إن المتدينين، لا يبلغون فهم حقيقة مفردات الدين؟

ــ أجل، فما كل متدين صادقٍ في تدينه، يدرك حقيقة الدين!

ــ ألا يجعلهم هذا خارج الدين بالتَّبَع؟

ــ لا، فقد نبهناك إلى مستويين متمايزين من التدين فيما سبق. فلا تتجاوز ما نذكره لك، فإننا ما نذكر لك شيئا إلا لضرورة اعتبارك إياه، وإلا سيكون كلامنا لغوا.

ثم لا بد أن ننبهك إلى أن أغلب المتدينين، متأثرون بعمدة طريق الفلاسفة الذي هو الفكر؛ فتجدهم يقعون تحت سلطانه داخل دائرة الدين. فأمثال هؤلاء لا تحسب مقولاتهم على الدين بصفة تامة، وإن كان الشرع متجاوزا عنها من أجل رفع الحرج. أما المعرفة الدينية الخالصة، فهي لا تتم إلا للأنبياء عليهم السلام، من كونهم لا ينطقون إلا عن وحي. ولكن لورثتهم من الربانيين نصيب منها بعد أن يُحكموا أصول الأخذ عن الله.

ــ يا سيدي كأنكم تجعلون الحقيقة وراء الدين، كما جعلتموها وراء الفلسفة؟

ــ وراء التدين، لا وراء الدين. فالدين هو الطريق إليها، والحامل لنعوتها. ونعني بالتدين هنا الخلاصة العلمية التي للمتدين.

ــ يبدو الأمر وراء كل غاية، وفوق كل إدراك!

ــ صحيح، لأن الحقيقة بسيطة، والناس يظنون أنها صعبة المنال ومعقدة؛ فيصعبون الأمر على أنفسهم، ويطيلون الطريق. بل إن منهم من لا يطمئن حتى يجعل نيلها محالا عليه. هذا نوع من التنزيه الحاجب. ولكل مقام رجال.

ــ أريد أن أعود إلى السجن الذي ذكرتموه قبلا. كيف يتخلص المرء منه، وأغلب عناصره من الضروريات؟ فهل يمتنع طالب الحقيقة عن كل الأمور التي هي من قبيل الزواج والتكسب، حتى يصح له الخروج عن تحكمها، أم أن هناك مخرجا آخر؟

ــ أولا، لا بد من تأكيد مبدإ الخروج عن تحكم كل شيء سوى الحق حتى يتمكن السائر من التقدم في الطريق. هذا هو ما يسمى التجرد. وفي هذا التجرد، يكون المرء ناظرا إلى نفسه، كما ينظر إلى الشخص الأجنبي. فهو تجرد عن متطلبات تلك النفس. ويسمونه أيضا "قطع العلائق". هذا

التجرد، يخلّص النفس من زوائدها، حتى يسهل في النهاية التخلص منها هي ذاتها.

والتجرد، كما الأحوال الأخرى، يقصد به الباطن. فمن تجرد في ظاهره ولم يتجرد في باطنه، فلا عبرة به. لكن تجرد الباطن من دون ربطٍ بتحقيقه في الظاهر، قد يدعيه كل أحد. فبقي أن التجرد، وإن كان محله الباطن، فإن علامة الصدق فيه أن يتحقق في الظاهر ولو في وقت ما؛ حتى يظهر للشخص نفسه هل هو صادق في دعواه أم لا. خذ مثلا من يدعي الزهد في المال. فقد يدعيه من يملك المال، ويقول لك إنما زهدي في قلبي؛ ولكننا لن نعتبر كلامه إلا عند النظر إليه وقت فقد المال في الظاهر. فإن جزع، فما هو زاهد؛ وإن لم يتزعزع باطنه، فدعواه الزهد صادقة. هذا هو الأصل في مثل هذه الأمور.

ــ إن ما تقولونه، يكاد لا يوجد في إنسان! فكيف إن عممناه على كل ما ينبغي أن يتحلى به طالب الحقيقة من أحوال؟!

ــ صحيح! لذلك طلاب الحقيقة قليلون بين الناس. ولكن من شاء الله له سلوك الطريق، فإنه يؤهله سبحانه بما يلزم. فكل شيء من الله.

ــ هل تقصد أن شروط السلوك، هي من الله؟

ــ نعم، هذا هو الأصل. وكل من يظن أنه سيأتي بالشروط من عند نفسه، فهو واهم.

ــ إذا كان الأمر هكذا، فلا فضل لشخص على آخر، حتى نقول هذا مؤهل وهذا غير مؤهل؟

ــ الفضل لله وحده، ولكن الناس يتمايزون بالعلم. فمن يعلم أن ما به من نعمة هو من الله، ليس كمن يظن أنها نتيجة جهده وتدبيره. ولا ينفع هنا الاعتقاد، بل يتطلب الأمر أن يكون المرء على يقين إن لم يكن مشاهدا.

ــ وكيف سأعلم حقيقة ما عندي، وأني من هؤلاء ولست من أولئك، والأمر دقيق إلى هذا الحد؟

ــ تعلم ذلك مني. هذا هو معنى المرآة في حقي. أنت ستعمل بما شرع الله، وأنا سأبين لك الصواب من الخطإ بإخراج صورة باطنك إلى علمك. ثم إن كنت على خطإ، فسأبين لك العلاج الذي يخلّصك من آفتك. هذا في كل أمر مما يتعلق بأحوال باطنك ومعاملة ربك.

ــ إن كان الأمر كذلك، فوالله إنها لمهمة صعبة وخطرة، رغم أني لا أستطيع تصور كنهها بوضوح!

ــ هي وظيفة الأنبياء في الأصل. هل تظن أن وظيفة الأنبياء، يستطيعها كل أحد؟!

والناس الذين ينكرون هذه الوظيفة لنواب الأنبياء، ما يفعلون ذلك إلا لجهلهم بحقيقة هذه المهمة، وبمقومات النبوة، وبالغاية من كل هذا.

ــ أكاد أجزم أن مجرد الشعور بأهمية الأمر، يكاد لا يتوفر إلا عند قلة قليلة!

ــ صحيح. فالشعور من شروط الأهلية الأولى.

ــ فأرني يا سيدي صورتي حتى أعرف حقيقة أمري!
ــ نسيتَ أني قد ذكرت لك أن طريقنا تخالف طريق أهل النظر. كل ما ذكرته لك هو تقريب للأمر حتى تجد دافعا للانخراط فيه. أما إن كنت تريد أن تتعرف على صورتك، فعليك أن تدخل في التجربة العملية. والتجربة العملية هي ما يسمونه الذوق. والفرق بين الذوق والتجربة عموما، هو أن التجربة قد تكون في النفس، كما قد تكون خارجها. والذوق هو التجربة في النفس حصرا. فمثلا الباحثون في المختبرات الذين يجربون أثر المواد على بعضها، هم مجربون، لكن ليسوا بذائقين.

واعلم أن كل الطرق ينفع فيها العلم المجرد، إلا طريقنا هذه! وقد غلط قوم، واشتغلوا بالنظر وحده في طلب الحقيقة، فالتحقوا بالفلاسفة، وإن كان منطلقهم من الدين. ونعني بهم المتكلمين. فما زادهم ذلك إلا بعدا من الحقيقة، بعكس ما كانوا يطمعون.

واعلم أنهم، وإن قاربوا بعض جوانب الحق في مقولاتهم، إلا أننا لا نصفهم بالوصول إلى الحقيقة بسبب عدم جمعهم

لأطرافها. فإن الحق لا يخلو منه أحد، ولكن العارف به عند كل أحد، هو من نقصده بالواصل إلى الحقيقة. فميز الكلام!

ــ يا سيدي، يصعب علي تبيّن ما ترمون إليه، فحبذا لو تبسطون قولكم.

ــ نريد أن نقول إن الحقيقة يعلم كل الناس منها وجها، ويجهلون ما بقي من الوجوه. وهم بسبب جهلهم بكل الوجوه، ينسبون إلى الجهل. ويظهر هذا جليا في الوجوه المتقابلة. فتجد المشبه مثلا لا يقبل التنزيه؛ وتجد العكس. وتجد من يعلم الجبر ينكر الاختيار؛ وتجد العكس. وهكذا.. فنحن لا نريد أن نستقصي كل وجه على حدة، وإنما نريد أن ننبهك إلى القاعدة. ولو تتبعت كل مقولات الناس في الحقيقة، لوجدتها لا تخرج عما قلنا، لكن العالِم عندنا، هو من يجمع بين كل الوجوه وإن كانت متقابلة. ولعلك قد استنتجت أن النظر والفكر لا يفيان بالمطلوب هنا. فبقي طريق الذوق، الذي يفتح الباب وحده إلى ما نبهناك إليه. والله الموفق وحده.

۞۞۞

ــ هل بمجرد أن أرى صورتي فيكم ـ كما تقولون ـ أعلم الحقيقة؟

ــ لا، فما نقصده برؤية نفسك، هو معرفة نفسك على ما هي عليه من الصفات. وذلك أن الناس يظنون أنهم على صفات معينة، وهم على نقيضها غالبا. فقد يظن المرء نفسه عالما، وهو في الحقيقة من الجاهلين؛ وقد يظن نفسه موحدا، وهو من المشركين؛ وقد يظن نفسه أمينا وهو من الخائنين. وهكذا إن تتبعت جميع الصفات. وخوفا من أن يطلع الناس على حقيقة أمرهم، فهم ينشغلون بالأشياء الخارجة عنهم، طيلة يومهم، حتى يرتاحوا ويتمكنوا من استشعار بعض الرضى الموهوم، الضروري لاستمرار عيشهم.

والمرآة الآدمية، وظيفتها في البداية، أن تعرّي النفس أمام صاحبها. فيظهر له منها ما يجعله يتمنى موتها وخلاصه منها. ويخجل من صفاته حتى يكاد لا يرى على وجه الأرض أحقر منه. وهذا ينفعه في تحقيق طلبه إن كتب الله له المواصلة. فما هذا الذي نذكره هنا إلا البداية.

ومن لم يصبر على مرارة معرفة نفسه على ما هي عليه، فإنه ليس مؤهلا للتقدم. وقد علمتنا التجربة، أن أغلب الناس يفرون من ذلك، ويلجأون إلى من يداهنهم، ويصالحهم مع أنفسهم. يفعلون هذا حتى عند انتسابهم إلى طريق التربية وطلب الحقيقة. انظر ما أعز هذا الأمر حتى صار مفقودا عند من يزعمون أنهم أهله، إضافة إلى غيابه عند غير أهله.

هذا هو المستوى الأول من معرفة النفس.

أما المستوى الثاني، فهو مستوى التحقق، ولا يكون هذا، حتى تصير مرآة لنا، فينعكس الأمر.

۞۞۞

ــ وكيف أكون أنا مرآة لك يا سيدي؟ فهذا ما لم يخطر لي على بال!

ــ ما نقصده، هو أن تنطبع فيك صورتنا. وهذا لا يحصل إلا بأمرين:

الأول: أن تنمحي صورة نفسك التي كنت تتوهمها، ضمن العملية التي ذكرناها لك آنفا.

والثاني: أن تتعلق بنا، إلى الدرجة التي تنجذب إليك صورتنا، فتنطبع فيك.

ــ وكيف يكون التعلق؟ وكيف تنطبع صورتكم في؟ فإن هذا من عجيب الأمر!

ــ فأما التعلق، فهو المحبة. واعلم أن المحبة هي أصل كل هذه العملية التعرفية التحققية. فإذا صحت المحبة، جذبتنا إليك حتى نصير نحن أنت. وهذا الأمر الذي نذكره لك هنا، يعرف بالذوق؛ أما العقول فإنها لا تظفر منه بشيء، بل تنكره وتردّه.

ــ وكيف أعلم أن صورتكم قد حلت فيّ؟

ــ تعلم هذا عندما تجد صورتك الباطنية قد تغيرت عما كانت عليه. فتصبح صفاتنا صفاتك. وعندما تبلغ نهاية هذا المستوى، فإنك ستجد ذاتنا ذاتك. تعلم هذا يقينا لا شك فيه، مع كون صورتنا الظاهرية غير صورتك. ولولا أنا قد ذقنا هذه الأمور، وعلمناها علما صحيحا، لصعب علينا تصور

ذلك. فإن مثل هذا لا يبعد أن يكون جنونا عند العقول المقلدة.

ــ يا سيدي ما عدت أستطيع أن أميز الأمور معكم. ولولا حسن ظني بكم، وعلمي أن جهلي بما هو عليه الطريق متيقن، ما استمررت في الاستماع إليكم.

ــ إذا لم تكن تقوى على الاستماع، فما بالك بالمشاهدة! ثم، ما بالك بالتحقق! كل هذا يدلك يا ولدي على أن ما تطلبه أعز من العزيز.

ــ وهل يبقى فوق هذا المستوى، علم يطلب وحقيقة تدرك؟

ــ نعم، هو أن تصير مرآة كلية، تجمع جميع حقائق الوجود. فإن ما كنا نتكلم فيه، هو انطباع صورة المرآة الجزئية الآدمية، التي هي مرآة للمرآة الأصلية. والفرق بين هذه وتلك، هو أن المرائي الجزئية متعددة في الزمن الواحد، أو مع الأزمان. أما المرآة الأصلية، فهي واحدة لا تتعدد.

وهي المظهر الأول للحقيقة. فهي المرآة التي لم تسبقها مرآة على الإطلاق!

فإذا انطبعت فيك صورة المرآة الأصلية، فإنك ستصير مثلي مرآة لها. أي مرآة من الدرجة الثانية. نقول لك هذا حتى لا تختلط عليك الحقائق إذا شاهدت صورتها فيك، فتقول أنا هي. وقد قال هذه المقولة قوم، فنزلوا عن صحيح العلم، وإن كانت مشاهدتهم صحيحة. وإذا علمت ما قدمناه من كلام من أن المرآة الأصلية لا تتعدد، فإنك ستلزم مكانتك، وتعرف قدرك، وإن تحققت لك الصورة في نفسك.

ــ ولكن يا سيدي، ما ذكرته، رغم صعوبة فهمه، فإنه يدل على أننا سنرى صورة الحقيقة في المرآة الأصلية، ولن نعلم الحقيقة نفسها. فهل ما فهمته صحيح، أم أن هناك ما يقال؟

ــ ما فهمته صحيح. فالحقيقة لا تدرك إلا في المرآة الأصلية، أما هي في نفسها، فيمتنع أن يتصل بها إدراك، كما يمتنع أن ينفصل عنها.

ــ يا سيدي هل هذا تلاعب بالألفاظ، عند تحقق العجز عن البيان، أم أنه علم صحيح هو فوق ما نصل إليه نحن؟

ــ صدقت في نسبتك من يتوارى خلف الألفاظ المبهمة، والتعابير الغريبة إلى العجز عن البيان الناتج هو الآخر عن العجز عن وضوح الرؤية؛ ولكن لسنا بحمد الله من هذا الصنف. والكلام الذي نقوله لك هو علم صحيح، ناتج عن وضوح في التمثل، ولكن ما نستطيع أن نعبر بأكثر مما تسمع، بسبب رفعة المرتبة التي نتناولها بالكلام الآن، وبسبب أن هذه العلوم لا تُتداول بالطريقة المعهودة وحدها. وذلك أن الأخذ لمادتها يكون من باطن مرآتك التي هي أنا. فإن حصل لك الأخذ، فستعلم ما ذكرناه لك، سواء نطقنا بالعبارة التي تفيد ذلك العلم عندك وقتئذ، أم سكتنا.

ــ يا سيدي، اعذرني في سؤالين جانبيين. لم تتحدثون مرة عن نفسكم بصيغة الإفراد فتقولون: أنا؛ وتتحدثون مرة بصيغة الجمع، فتقولون نحن؟ فإن كان تعظيما لنفسكم، فلم لم يدم؟ ثم هذا الذي نسمعه منكم، أليس هو ما يسمونه التصوف الفلسفي؟

ــ أما الإفراد والجمع عند الكلام، فيكون تابعا للحقيقة المتكلِّمة: فإن كان الكلام من المرآة أو من الصورة كان بالإفراد؛ وإن كان منهما معا، يكون بصيغة الجمع. كل هذا والمظهر واحد، أو إن شئت قلت العين واحدة. وهذا من العلم المكنون الذي لا يطلع عليه إلا المقربون.

أما عن سؤالك الثاني، فإن الكلام فيه كما يأتي:

للتصوف طريق وللفلسفة طريق، فهما طريقان متوازيان كما قد نبهناك في بداية هذا الفصل. فكيف يمكن أن يكون ما هو من طريق منسوبا إلى طريق آخر؟ فهذا لا يستقيم. نقول هذا رغم علمنا بما دعا من أطلق التسمية إلى إطلاقها.

واعلم أن من يتكلم في مثل هذا بمثل ما ذكرت، هو ممن ينتسب إلى الطريق، أو هو ممن يميز بعض معالم الطريق من غير أن ينتسب. فما دخل تحت إحاطة إدراكه سماه تصوفا سنّيا، وما خرج عن تلك الإحاطة ورأى فيه بعض شبه بكلام الفلاسفة، قال عنه هو تصوف فلسفي. فالمعيار نفس الناظر هنا، لا ذات المنظور. فاعلم ما نرشدك

إليه! وهذا مما يقع لكثير ممن ينسبون أنفسهم إلى العلم، من غير أن يميّزوا.

أما نحن فنقول: هذا ليس تصوفا بالمعنى المتداول، وليس فلسفة؛ بل هو حقائق علمية حقيّة. مطلقة في نفسها، فلا يقال عنها شرقية ولا غربية، بل هي ذاتية. وبما أن الناس تقصر عقولهم عن الاقتراب منها، وهم من يرون لأنفسهم أهلية النظر وإصدار الأحكام، فإنهم يعسفون فينسبونها إلى هذه الجهة أو تلك مما يقرب إلى أفهامهم. ولو أنهم تواضعوا، وأقروا بعدم كمال إدراكهم، لكانوا من الأدباء حيث لم يكونوا من العلماء.

۞۞۞

ــ يا سيدي بحديثكم عن أصناف المرائي ودرجاتها، هل نفهم أن الوجود كله مَراءٍ؟

ــ نِعْم ما فهمت! فالوجود كله مراء، لكنها متفاوتة في المراتب. فمنها الكلية الأصلية كما بيّنّا سابقا، ومنها الكلية الثانية، ومنها الجزئية، وجزء الجزئية وهكذا،...وهذه المرائي

هي ما اصطلح عليه أئمة الطريق الدالون على الحق بمراتب الوجود، وتفاصيل مراتب الوجود؛ إلى أن تبلغ أشخاص الأنواع، بل وتصل إلى أجزاء الأشخاص وأجزاء الأجزاء.

ــ فإذا كانت كلها مرائي، فما المشهود في كل مرآة؟

ــ كل مرآة تُشهد فيها صورة المرآة التي فوقها في المرتبة. وكل صورة في كل مرآة، يُشهد فيها وجه الحق. وكل وجه هو مخالف للوجه الآخر، بسبب أن كل مرآة هي غير المرآة الأخرى. لهذا أخبر الله عن كون وجهه مقابلا لكل ناظر. وهذا مما لا يميزه عامة المؤمنين.

فمن كان يشهد وجه الحق في كل مرآة، صح له أن يقول: ما في الوجود إلا الله! ومن أنكر عليه، فإنكاره يدل على أنه لا يشهد الوجه، وإنما يشاهد المرآة وصورة نفسها (شكلها، ولونها، وصفاءَها أو عدمَه، و...) فكل فريق مخبر عما يشهد، ووقع الاختلاف في المشهود، هل هو الحق أم غيره. كل هذا والصورة والمرآة شيء واحد، لا يقع فيه التمييز إلا عقلا لا وجودا. فانظر ما أعجب هذا الأمر!

ــ يا سيدي ما أحوج الناس إلى هذا العلم، فهو يرفع الخلاف بين كل الأفرقاء!

ــ صحيح ما تقول، لكن الله لم يشأ أن يرفع ذلك الاختلاف، فهو أيضا له أصل في الحقائق. ولكن أباح الله لخواص عباده بلوغ مركز دائرة الوجود، فنظروا منه إلى محيطها، فعلموا نسبة كل شيء، وعلموا موضعه، والحكمة منه.

ومع ذلك نقول: إن ما نتكلم فيه، هو ما طلبه الفلاسفة، ولم يستطيعوا الظفر به. وهو ما قصده أغلب المتدينين ولم يتمكنوا من بلوغه.

ــ فهل الطريق مسدود على الفريقين؟

ــ من حيث العموم هو مسدود، لكن من حيث التعيين، فقد يعطي الله لمن يشاء منهم استعدادا ينخرطون به في طريقنا.

ــ فما علامة الاستعداد المميز لهؤلاء عما هو صفة غالبة لكل الفريق؟

ــ علامته أن يتواضعوا لنا، وإن كانوا أعلم فريقهم، حتى وإن كنا غير معروفين بالعلم عندهم وعند أمثالهم.

ــ يا سيدي هذا من أصعب الأمور علما وعملا!

ــ صدقت، ولكن هكذا هو الأمر. وما نحن فيه إلا مبلغون. ما لنا تصرف في الإبقاء على الشروط أو في رفعها. فافهم ما ندلك عليه، فإنه يرفع عنك مشقة كبيرة في تبيّن كل هذا.

بعد كل هذا التفصيل، لم يبق لك يا ولدي إلا الدخول إلى المرحلة التطبيقية الذوقية إن كنت تجد من نفسك داعيا إليها؛ وإلا فانصرف عنا، وعسى أن يعينك ما ذكرناه لك على عدم الاعتراض علينا فيما نأتيه من أقوال وأفعال، أو ما نكون عليه من أحوال.

وسنمر إلى الطور الأعلى في الكلام، فإن كنت من أهله بعد قطعك لمراحل الطريق، فسنجدك هناك، وإن لم تكن من أهله، فإنا سنقصر الكلام مع أهله من دونك. فإننا مأمورون بأداء الأمانات إلى أهلها لا إلى غيرهم. فافهم عنا.

ــ يا سيدي، أنت ستتقدم إلى أمام، وأنا لا أدري هل سأكون هناك، أم أنه سيحال بيني وبين اللحوق بكم. فلذلك

أتمنى أن تسمحوا لي بمدة إضافية حتى أستزيد من الخير الذي نلت معكم.

ــ لك ما تشاء.

ــ يا سيدي هل التساؤلات التي ترد على النفس، هي عندكم من مقدمات التحقق، قياسا على طريق الفلاسفة، أم أن طريقكم لها خصوصيتها؟

ــ الأصل في طريقنا، أن لا يتعلق الفتح بمقدمات، من أي نوع كانت، لأنه من عين المنة والفضل؛ ولكن قد يحدث ويتساءل المرء عن شيء ثم يتبعه الجواب من الحق. فيكون السؤال تنبيها من الحق للعبد حتى يتوجه للشيء المعين.

ــ قد تكلمتم فيما سبق بما تُشم منه رائحة الحلول والاتحاد، فهل تقصدون أيا من ذلك؟ فإن لم يكن، فكيف نفهم أقوالكم على غيرهما؟

ــ يا ولدي، الناس يتكلمون بما لا يحسنون. الحلول والاتحاد، مقولتان لا تلزماننا في شيء. أولا، لأنهما ليستا من وضع أئمة الطريق. وثانيا، لأنهما من نتاج فكر سقيم، قاصر عن إدراك الحقائق.

فنحن عندنا، الوجود للحق وحده. ونحن في هذا، على علم بأن اندراج الخلق في معقولية الوجود، يسبب الحيرة للناظرين. فهم يتساءلون: فإن كان الوجود للحق وحده، فكيف أدركنا وجود الخلق؟ فهل هو نفس الوجود؟ فإن كان كذلك، فسيكون الحق عين الخلق. وهذا مخالف لما نزلت به الشرائع يقينا. فكيف يكون وقتئذ ما هو مخالف للشرع علما صحيحا؟

أما إن كان الوجود وجودين، أحدهما للحق، وثانيهما للخلق، فإنه يمتنع أن يكونا في حيز واحد. وهذا الشق الثاني من بسط الموضوع، هو الذي أدى إلى القول بالحلول والاتحاد، عندما سمع أهلهما بتجلي الحق في مظهر الخلق. فإنه لا مخرج للكلام عندهم وقتها، إلا بالقول بحلول وجود الحق في وجود الخلق، أو باتحاد وجود الحق بوجود الخلق. هم يقولون هذا من منطلق الفرضيات، وإلا فهم لا يعلمون

ماهية الوجودين مثلا، وهل هما قابلان للحلول والاتحاد أم لا. فهذا من التفاصيل التي هي خارج إدراك عقولهم. فانظر كيف أنهم يبنون أقوالهم على الظن. وما كلّف أحد منهم نفسه ببحث هذه المقولات من جميع أوجهها.

ونحن، قد ذكرنا لك، أن الوجود عندنا واحد لا يتعدد. فيبقى السؤال السابق ثابتا؛ وهو كيف يتجلى الحق في صور خلقية مع هذا؟ فنقول: هذا لا يرتفع إلا بالكشف، لأنه ليس من علوم العقل، حتى يُتوصّل إليه بمجرد النظر. فبقي أن ينتهي أصحاب النظر عن الخوض في مثل هذه المعارف، لأنهم سيبينون عن قصورهم، وعدم اعتبارهم للمراتب.

۞۞۞

ــ يا سيدي، عدد كبير من هؤلاء، ينكر الكشف. فكيف سيعتبره وهو ينكره؟

ــ صدقت. ولكن علم الكشف ثابت بالدليل الحسي. وذلك أن جزءا من علم الأنبياء والأولياء هو منه. وهذه الطائفة

ثابت وجودها حسا. فمن أنكره إذن، يكون كمن ينكر وجود الشمس مثلا. فهل هذا يستقيم؟

ــ يا سيدي، من ينكر الكشف، قد ينكر النبوة أيضا، فكيف نلزمه بمقالنا؟

ــ هذا أيضا مثل الأول، لأن النبوة ثابتة في الحس، وقد ادعاها قوم على مر الزمان. فلا يبقى بعد هذا إلا تصديقهم في دعواهم، أو تكذيبهم. فإن قال قائل بتكذيبهم، سألناه: هل لتكذيبك مستند موضوعي، أم هو اعتباط. فإن قال بأنه يستدل من نفسه أو من بعض أمثاله على عدم صحة دعوى الأنبياء، قلنا له: هذا يفتح لك باب الشك فحسب، لأنه قد يكون من بني جنسك من لا يشترك معك في كل الصفات، فكيف تجعل نفسك أو من هو على شاكلتك معيارا عاما. فهذا يحتاج إلى مرجح خارجي حتى يُقبل.

ــ فالمرجح الخارجي، ينبغي أن يكون لا من هؤلاء ولا من أولئك! فمن عساه يكون؟

ــ ما قلته صحيح. والمرجح هو الحق، الذي يؤيد الأنبياء بما يشهد لهم بصحة دعواهم؛ وليس إلا المعجزات، لأنها تخرج عن قدرة الفريقين. فاعلم هذا الأصل.

ــ يا سيدي هذا قول بديع في إثبات النبوة، فهل لكم بما يثبت الولاية أيضا؟

ــ اعلم أن الولاية تثبت بثبات النبوة، لأنها أصل لها وفرع. فهي أصل للنبوة من حيث النسبة إلى الحق، وهي فرع لها من حيث الوظيفة التربوية. نعني أن الأنبياء هم أولياء قبل كونهم أنبياء، والأولياء هم خلفاء للأنبياء في هداية الخلق.

ــ يا سيدي، فما الحكمة في كون بعض الأولياء نطقوا بكلام منكر، بينما الأنبياء ما نطقوا بمثل ذلك، هذا مع كون التلازم بين النبوة والولاية على ما ذكرتم؟

ــ اعلم أن الأنبياء أكمل في الولاية من الأولياء، وهم مع ذلك أصحاب شرائع. فكلامهم معجز، يجمع بين الحقائق والشرائع بما لا ينقض أحد الجانبين. وكمالهم العلمي المضمون بالوحي يجعلهم يدلّون على الحقائق في أيسر عبارة. أما الأولياء، فمنهم من هو على قدم الأنبياء، لا يصدر عنه ما يصدم الأسماع، وهؤلاء هم أكابرهم؛ ومنهم من يقلّ

عنهم درجة، فينطق بالحقائق بعبارة تمجها الأسماع. ولا يكون هذا إلا لغلبة حال، أو لعدم القدرة على الثبات أمام الحقائق عند مطالعتها أول ما تتبدى. فإن لكل بداية دهشة كما يقال.

ــ هذا يعني أن ما نطق به أصحاب الشطحات صحيح؟!

ــ نعم، لكن بما يفهمونه هم، لا بما يفهمه كل سامع. ومن هنا وقع عليهم الإنكار. فالعبارات تُفهم بحسب مراتب السامعين. وخذ مثلا بسيطا وهو كلام البلغاء، هل ترى كيف أن كليلي الفهم لا يدركون مجازه وكناياته واستعاراته! هذا مع كونهم في مرتبة واحدة من حيث التحقيق. فكيف يا ترى يكون فهم شخص من مرتبة ما، لكلام شخص من مرتبة فوقها؟!

واعلم ـ برجوعنا إلى المرآة ـ أن الناطقين بالشطحات، مراعون للصورة المتجلية في المرآة، غير مراعين للاختلاف الحاصل في المرائي؛ بخلاف الأنبياء وكمّل الأولياء الذين هم مراعون للأمرين معا. من هنا تعلم الكمال من النقص.

ــ فما القول في الحقيقة والشريعة؟ هل هما متكاملان أم متعارضان أم ماذا؟

ــ الحقيقة حق والشريعة حق. ومَثلهما مثل الروح والجسد. فالحقيقة روح لجسد الشريعة. وهما معا مظهران للحق. والشريعة بدون حقيقة (من حيث إدراك المتدين) عاطلة؛ والحقيقة من غير شريعة (حسب زعم الزاعم)، باطلة.

والشريعة تتضمن الحقيقة كما يتضمن الجسد الروح. والدلالات الشرعية على الحقيقة كثيرة، لكن الغلط يدخل على الناس من كونهم يقصرون معنى الشريعة على الأحكام المتعلقة بالعبادات والمعاملات، دون النظر إلى أسرارها التي هي مناط تلك الأحكام. ولولا انطواء الحقائق في العبادات والمعاملات، ما ظهر للأحكام وجود في مرتبتها. فهما كالوجود العلمي الذي للأشياء، بالمقارنة إلى وجودها الحسي. فالأشياء هي نفسها، لكن في مرتبتين. فكذلك الحقائق والأحكام.

ــ يا سيدي، فهل لغير هذه الطائفة، نصيب من الحق، أم أنه مقصور عليها كما يُفهم؟

ــ اعلم أن الحق من حيث تجليه، فهو عام لا يخلو منه شيء؛ أما من حيث العلم به فلا. ونعني بالعلم به علم كون المشهود حقا، وعلم حقيقته. فما يكفي أن تقول ما ثَمَّةَ إلا الحق حتى تكون محقا؛ بل عليك أن تعلم الحقيقة الحاكمة على مشهدك. وقد ظن بعض الناس أن الكلام غير مربوط، فنطقوا بسفاهات لا يقبلها أحد، وهم يظنون أنهم على شيء. وكل ذلك بسبب عدم وجودهم لمرآة يعلمون منها حقيقة حالهم.

ــ إذا كان الأمر هكذا، فللفلاسفة أيضا نصيب من الحق! فلم جعلتموهم في طريق موازية لأهل الحق في كلامكم السابق؟

ــ ما تقوله صحيح، من حيث التجلي، الذي هم بعضه؛ غير صحيح من حيث جعلهم فكرهم دليلهم إلى الحق، ومن حيث استنتاجاتهم. نريد أن نقول إن أهل طريقنا يعلمون الحق الذي عند الفلاسفة ويعلمون وجوهه. أما الفلاسفة، فهم محجوبون بمقولاتهم عن الحق في نفس الحق.

ــ يا سيدي اعذرني إن قلت لك: لم أفهم شيئا من كلامك. ولم أزدد به إلا حيرة!

ــ أعلمُ هذا. أنت لا تفهم، لأنك تسمع كلامنا بعقلك المعقول، فلن تظفر إلا بما يدخل تحت إحاطته؛ وما خرج عنها، يتفلت منك. فهذا من أثر المراتب التي نبهناك إليها. وحتى تدرك حال الفلاسفة أو غيرهم ممن يشبههم في بعض الوجوه، فافترض شخصا، لم ير قط مرآة في عمره، ولم ير انعكاس صورته في أي شيء غيرها من الأجسام العاكسة كالماء مثلا؛ ومع ذلك هو يرى غيره من الناس، ويعلم أنه يشبههم، مع يقينه بأنه غيرهم. فهل تراه سيعرف نفسه (من حيث الصورة الظاهرة) من استقراء كل الوجوه التي تمر به؟ أم أنه سيزداد حيرة وبعدا، كلما نظر إلى وجه جديد؟! وهل سينفعه وصف الواصفين له من خارج؟ أم سيزيد من شعوره بالعجز في معرفة نفسه؟!

ــ يا سيدي إن المثل الذي ضربتموه يبرز أهمية المرآة في عملية التعرف، رغم أني أعلم أني لا أدرك من معنى المرآة إلا المرآة المعلومة للعموم، وأعلم أنكم تقصدون مرائي لا ندرك منها إلا معنى بسيطا من كونها تدل المرء على حقيقته بكيفية ما. فلا زلت مثلا لا أعلم حقيقة كونكم مرآة، رغم أني أصدقكم، وأستشف الحق من وراء عباراتكم.

ــ سبق أن نبهتك أن العلم المجرد غير نافع في طريقنا، فلا داعي إلى التكرار. وعلى كل حال، فقد حان وقت الفراق بيننا، فهذا ليس منزلنا، وإنا راحلون إلى حقيقتنا بحقنا، فاجهد أن تلحق بنا. والسلام عليك.

الفصل الثالث
المرآة الكلية

صحبت مرآتي، حتى تحققتُ منها بعلم ذاتي وصفاتي، وتقربت إليها بكل ما يتقرب به المتقربون، من غير نظر إلى عوض أو غرض. فاستخلصتني لنفسها، وطهرتني من دنس غيريتها التي هي غيريتي؛ فأحرقتني بنار شعاعها حتى انعدمت مني أصباغ تزيني، فتجردت عن زينتي. فلما ذهب عني ما كنت أسميه أنّي، وعدت إلى سذاجتي التي ليست سوى حقيقتي؛ انطبعت فيّ صورة المرآة، فصرت واجدا لما كنت له مشاهدا. وصرنا مرآة في مظهرين، ليس بينهما فرق؛ إلا من حيث تمييز الأصل من الفرع الذي عنه انشق.

۞۞۞

فعلمت أني مرآة الحق، التي هي عين الحق؛ التي ظهر فيها ما كان باطنا في جمعي قبل الفرق. وعلمت أن الصورة التي ظهرت عند التقابل في التجلي، هي صورتي عند التملي.

فكنت الشاهد المشهود والعابد المعبود. وظهر أن الازدواج في العد، هو نفس الواحد الفرد؛ عند انعكاس شعاع الشهود على أمواج الماء في السد.

۞۞۞

فما ثم غيري، سواء آمنت ووحدت، أم كفرت وجحدت. فإن آمنت فبصورتي؛ وإن كفرت فلها عن حقيقتي. فأنا في كفري أتم في فخري، وأعز في أمري. كما أني في إيماني أكمل في علمي بأعياني، وأظهرُ بسطوة سلطاني. إذا نظرت يمينا قلت أنا لا هو، وإذا نظرت شمالا قلت أنا لا هو. فالكلام واحد، والمقام متعدد. لذلك اختصرته في "كن"، وإن كان المتكوِّن غير المتكوِّن.

۞۞۞

فلما انكسر شعاعي على زجاجات الاستعدادات، وتميز كل عالم بما له من إمدادات، ظهرت صور صورتي، وانقسمت الحقائق في حقيقتي. واختلفت الألوان في صور الأكوان،

لتخبر عن جمالي خلف الصور الحسان، وعن كمال صفاتي خلف صفات الإنسان.

ونطقت الألسن التفصيلية بما في ذاتي من أسرار، وإن لم تتمكن من إمدادها في صور الأقلام بالمداد البحار. وشاهدَتِ الأعين، صورتي في صوري، فلم تتقيد لناظري فحار. أنا الغني وأنا صاحب الافتقار. أنا الواحد المتكثر في الأكثار. أنا أنت وهو وهي في التثنية والجمع، ونحن بالاختصار.

۞۞۞

أعلم نفسي في كلي، وأجهلها في بعض بعضي؛ بسبب عزة الإحاطة، واضمحلال سنتي في فرضي.

أنا كل ما ذكرت، وغيره. أنا غير ما ذكرت وغيره. أنا لا أنا؛ فلا كلام ولا بصر ولا علم ولا أثر ولا رسم، ولا صفة ولا اسم. فسبحاني عن سبحاني، وتعاليت عما أقول في عظم شاني. فلا مقام بعد العلم إلا الجهل التام، ولا منزل بعد الجنان إلا القفر ولا مقام.

۞۞۞

غابت الشجرة في النواة؛ وانسدل ستار الليل على ما أبداه النهار في ضحاه. واستدارت الدائرة عند ملاقاة النهاية للبداية؛ وختم الكنز بختم الطمس والعماية.

فالسلام علي في مني، في يومي الذي انطوى فيه عمري رغم كبر سني.

۞۞۞

- انتهى -